الفصل الثاني عشر
ما بين غزوة الأحزاب والحديبية من أحداث مهمة

المبحث الأول
زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها

ومع استمرار حركة السرايا، وبناء الدولة، وبسط هيبتها في الجزيرة العربية، كانت حركة البناء التشريعي والاجتماعي للأمة الإسلامية تتكامل، فنظام التبني يُهدم، والحجاب يفرض، وأدب الولائم يقرّر، وضرورة الالتزام بطاعة الله ورسوله يُؤكد على وجوبها، وتحارب الأعراف التي تعارض شرع الله تعالى، ففي زواج رسول الله ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش حكم ودروس وعِبَر بقيت خالدة على مر العصور وكر الدهور وتوالي الأزمان، وهذه قصة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

أولاً: اسمها ونسبها:

هي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسدية، أخت عبد الله بن جحش، وحمنة بنت جحش رضي الله عنهما.

أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، عمة رسول الله ﷺ، وأخت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه [1].

يقال كان اسمها: برة، فسمّاها النبي ﷺ زينب، وكانت تكنى أم الحكم [2].

وكانت زينب رضي الله عنها من المهاجرات الأُول، ورعة قوّامة صوّامة، كثيرة الخير والصدقة، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً، قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يداً، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق» [3].

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١/ ٣٧٢).
(٢) المصدر نفسه، (٤/ ١٨٤٩).
(٣) مسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٩٠٧)، رقم (٢٤٥٢).

وقد مدحتها السيدة عائشة رضي الله عنها كثيراً، وقالت في حقها: لم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى للّه وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدّق به، وتقرب به إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدَّة كانت فيها تُسرع منها الفيئة [١].

ثانياً: زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه:

أراد الرسول ﷺ أن يحطم تلك الفوارق الطبقية الموروثة في الأمة المسلمة من عادات الجاهلية، ليكون الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وكان الموالي ـ وهم الذين جرى عليهم الرق ثم تحرروا ـ طبقة أدنى من طبقة السادة، ومن الموالي كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ـ الذي أعتقه ثم تبناه ـ فرأى رسول الله ﷺ أن يزوج زيداً من شريفة أسد وهي ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها، ليبطل تلك الفوارق الطبقية بنفسه في أسرته، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ﷺ، لتتخذ منه الأمة المسلمة أسوة وقدوة، وتسير البشرية على هداه في هذا الطريق.

وأيضاً لعل من الحكمة في هذا الزواج أنه كان مقدمة لتشريع آخر؛ لا يقل أهمية في حفظ توازن المجتمع، وحماية الأسرة عن الأول، وإن لم تظهر هذه الحكمة في بداية الأمر [٢].

انطلق رسول الله ﷺ ليخطب على فتاة زيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «بلى فانكحيه» قالت: يا رسول الله أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فقالت: يا رسول الله قد رضيته لي زوجاً؟ قال: نعم، قالت: لا أعصي رسول الله ﷺ، وقد زوّجته نفسي [٣].

وكان زيد بن حارثة إذ ذاك لا يزال يدعى زيد بن محمد، فتزوّجها زيد، وأصدقها في هذا الزواج عشرة دنانير، وستين درهماً، وخماراً، وملحفة، ودرعاً، وخمسين مُداً من طعام، وعشرة أمداد من تمر [٤].

ثالثاً: طلاق زيد لزينب رضي الله عنها:

شاءت حكمة الله تعالى أن لا يتوافق زيد وزينب في زواجهما، وأصبحت حياة الزوجين لا تطاق، وصمم زيد على فراق زوجه زينب، وكان قبل ذلك يشتكي لرسول الله ﷺ من عدم

---

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٨٩٢) رقم (٢٤٤٢).
(٢) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات، حفصة بنت عثمان الخليفي (ص ٢٠٥).
(٣) انظر: جامع البيان للطبري (٢٢/ ١١).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٩).

استطاعته البقاء مع زينب، ورسول الله يأمره بإمساك زوجه مع تقوى الله في شأنها، حتى آذن الله بالطلاق فطلّقها زيد، وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى زيد وطره، وبعد أن مكث معها ما يقرب من سنة، قال ابن كثير: فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما (يعني الخلاف) فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» (١).

لم يبق لزيد رغبة في إبقاء العلاقة الزوجية معها، لأنه كان كريم النفس، لا يريد أن يبني سعادته وراحته على شقاء الآخرين وتعاستهم، والإضرار بهم، ولهذا صمم على الفراق وعدم الإضرار بها، لأنها كانت تعيش في قلق واضطراب، وانتهى زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه بزينب بنت جحش على هذا الوضع، دون أي تدخل خارجي بينهما، ووقع ذلك الطلاق بمحض اختياره وإرادته، وأن رسول الله ﷺ كان ينهاه عن ذلك، ويأمره بتقوى الله وإمساك زوجته (٢)، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا السبب: (ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير آثاراً عن بعض السلف رحمهم الله أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها) (٣).

رابعاً: الحكمة من زواج رسول الله ﷺ من زينب:

كانت عادة التبني متغلغلة في نفوس الناس ومشاعرهم، وليس من السهل التغلب عليها، وإلغاء الآثار المترتبة عليها، كانت هذه العادة في صدر الإسلام في مكة، وفي أول الهجرة إلى المدينة، ثم شاء الله تعالى فنزلت الآيات في نفي أن يكون الأدعياء أبناء لمن ادعاهم في الحقيقة، وإنما ذلك حسب دعوى المدعي فقط، وذلك لا يغير من الواقع شيئاً، فقال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

ثم أمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، فهذا من العدل والقسط والبر، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن زيد بن حارثة رضي الله عنه ـ مولى رسول الله ﷺ ـ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (٤).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٨٩).

(٢) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ٢٠٩).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩١).

(٤) البخاري في التفسير باب ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ (٣/ ٢٧٦) رقم (٤٧٨٢).

ولم يجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ عدم معرفتهم لآبائهم الحقيقيين مبرراً لإبقاء تبنيهم لهم، بل حرم التبني في هذه الحالة، وأخبر أنهم حينئذٍ إخوانهم ومواليهم، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥] ، أي فإن لم تعرفوا آباءهم فليس بينكم وبينهم إلا الأخوة في الدين، والموالاة، وذلك عوضاً عما فاتهم من النسب، فيقال: فلان مولى فلان، أو مولى بني فلان [١].

وهذه الأخوة في الدين والموالاة لها أهمية كبرى، فهي ثابتة حتى للذين عرف آباؤهم ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة رضي الله عنه : «أنت أخونا ومولانا» [٢]، أي: أخونا في الإسلام والولاية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١٠] .

وجاءت نصوص أخرى تعالج هذا الأمر من جهة أخرى، وهي جهة الابن، فجاء تحريم الانتساب إلى غير الأب الحقيقي ـ والمنتسب يعلم ذلك ـ تحريماً قاطعاً لا شبهة فيه [٣]، قال ﷺ: «. . . ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً» [٤] [٥].

وقد جعل الشارع لنشوء النسب سبباً واضحاً، هو الاتصال بالمرأة عن طريق الزواج أو ملك اليمين، وأبطل ما كان يجري عليه أهل الجاهلية من إلحاق الأولاد عن طريق العهر والزنا، قال ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» [٦]، ومعناه أن من يجيء من الأولاد ثمرة لفراش صحيح، قائم على عقد الزواج أو ملك اليمين، يلتحق نسبه بأبيه، وأن العهر والزنا لا يصلح أن يكون سبباً للنسب، وإنما يكون سبباً لشيء آخر هو الرجم والحجارة [٧].

ثم إن الله سبحانه وتعالى بعد أن منع وحرَّم دعوة الابن بنسبته إلى من تبناه، وأمر بدعوته منسوباً إلى أبيه الحقيقي إن عرف، أو إلى الأخوة في الدين والموالاة، بعد ذلك بيَّن حكم من أخطأ أو تعمد مخالفة هذا التشريع الإلهي، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٤/ ١٣٦).
(٢) البخاري في الصلح (٢/ ٢٦٧) رقم (٢٦٩٩).
(٣) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ١٨٩).
(٤) صرفاً: توبة، وقيل: نافلة، عدلاً: أي فدية وقيل: فريضة.
(٥) مسلم في العتق رقم (١٣٧٠).
(٦) البخاري في الحدود (٤/ ٢٥٤) رقم (٦٨١٨).
(٧) انظر: علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الإسلامية، د. سعاد الصانع (ص ٥٢، ٥٣).

تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥] .

فقد نفى الله سبحانه وتعالى الجُناح (الإثم) عمّن أخطأ في نسبة الابن إلى غير أبيه في الحقيقة، وذلك بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، أو نسي فنسب الابن إلى غير أبيه بجريان لسانه بذلك، وأثبت الجرح والإثم لمن تعمد الباطل وهو دعوة الرجل لغير أبيه بعد علمه بتحريم ذلك [١].

كانت عادة التبني مستحكمة في نفوس الناس، وقد أخذت أبعادها مع مرور الزمن، فكان زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب إلغاء عملياً وليس إلغاء ذهنياً فحسب [٢].

إن الحكمة في زواج رسول الله ﷺ من السيدة زينب حكمة واضحة وظاهرة، وقد بيَّنها الله تعالى بقوله ﷻ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] .

وقد ذكر المبطلون من الكفار وفروخهم ومقلديهم بما ينعقون به، ويردده الجهال متعلقين بروايات مكذوبة، خلاصتها كما يفترون، أن النبي ﷺ قد هوي زينب بنت جحش بعد أن تزوجت بزيد بن حارثة، فلما علم زيد بذلك أراد طلاقها ليتزوجها النبي ﷺ [٣]... فهذا قول باطل. وقد نسف الإمام ابن العربي هذا القول من جذوره فقال: فأما قولكم: إن النبي ﷺ رآها ـ أي رأى زينب بنت جحش ـ فوقعت في قلبه، فباطل؛ فإنه ﷺ كان معها في كل وقت وموضع، ولم يكن حينئذٍ حجاب، فكيف تنشأ معه، وينشأ معها، ويلحظها في كل ساعة، ولا تقع في قلبه، إلا إذا كان لها زوج؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] والنساء أفتن الزهرات، فيخالف هذا في المطلقات، فكيف في المنكوحات؟ ثم إن قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] يعني من نكاحك لها وهو الذي أبداه لا سواه أقول: فلو كان الذي أخفاه رسول الله ﷺ هو حبه لها لأبداه الله تعالى وأظهره، فتيقنا أن الذي أخفاه رسول الله من أمر زينب هو نكاحه إياها، وليس ما تخيله المبطلون من حبه لها [٤].

إن الشرع أراد تأكيد إبطال نظام التبني وإبطال كل نتائجه، وتعميق هذا الإبطال في النفوس وتأكيده بالتطليق العملي، والقدوة والتأسي بمن يقتدى به في تطبيق هذه الأحكام الجديدة الناسخة، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ بزواجه بزينب بأمر من الله تعالى العزيز الحكيم [٥].

---

(١) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ١٩١، ١٩٢).
(٢) انظر: من معين السيرة (ص ٣١١).
(٣) انظر: المفصل في أحكام المرأة، عبد الكريم زيدان (١١/ ٤٧٤، ٤٧٥).
(٤) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٣١، ١٥٣٢).
(٥) انظر: المفصل في أحكام المرأة (١١/ ٤٧٦).

خامساً: قصة زواج رسول الله ﷺ من زينب وما فيها من دروس وعِبَر:

لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذكرها عليَّ»، فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها فولَّيتها ظهري ونكصت على عقبي فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن [(١)]، وأصدقها أربعمائة درهم، وكان زواجه ﷺ بزينب في السنة الخامسة على المشهور. وقال الحافظ البيهقي: تزوجها بعد بني قريظة [(٢)].

وأَوْلَم الرسول ﷺ في عرس زينب وليمة كبيرة، فأولم بشاة، وقد دُعي إلى الوليمة كل من لقيه أنس رضي الله عنه ؛ بناءً على أمر الرسول ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال: ما رأيت النبي ﷺ أَوْلَم على أحد من نسائه ما أولم عليها، أولم بشاة [(٣)].

وهكذا تزوج رسول الله ﷺ - بأمر ربه - زينب بنت جحش رضي الله عنها ، بعد طلاق زيد لها وانقضاء عدتها، وفي زاوجه ﷺ بزينب، وما نزل فيه من القرآن وما واكبه من أحداث، عظات وعِبَر [(٤)] وقفنا عند بعضها، ويجدر بنا أن نتأمل في بعض الدروس والعِبَر التي لم نقف عليها منها:

١ - كان خاطب زينب للنبي ﷺ هو زوجها الأول زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولعل اختيار رسول الله ﷺ لزيد مقصود لذاته، ليقطع بذلك ألسنة المتقولين وما قد يزعمونه من أن طلاقها وقع بغير اختيار منه، وأنه قد بقي في نفسه من الرغبة فيها شيء، وفي هذا يقول ابن حجر: (هذا من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب، لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه، وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها هل بقي منه شيء أم لا) [(٥)].

وفي هذا من الحكمة أيضاً أن ما يقع بين الزوجين من نفرة وخلاف ثم طلاق، لا يجوز أن يكون مانعاً من نصح أحد الزوجين للآخر، وأن يراعي فيه حقوق الأخوة الإيمانية، فهذا زيد رغم ما وقع بينه وبين زينب، ورغم أن هذا كان بسببها إلا أنه ذهب ليخطبها لرسول الله، بل ويقول لها: (يا زينب أبشري).

٢ - في الآية التي نزلت بشأن هذا الزواج عتاب للنبي ﷺ من ربه، إذ كان حين يأتيه زيد يشكو

---

(١) مسلم في النكاح (٢/ ١٠٤٨) قم (١٤٢٨).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤٧).
(٣) البخاري في النكاح، باب من أولم على بعض نسائه (٣/ ٣٨٧٠) رقم (٥١٧١).
(٤) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ٣١٢).
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٨/ ٥٢٤).

زينب ومعاملتها له، ورغبته في طلاقها يقول: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، أي اتق الله ودع طلاقها، أو اتق الله فيما تذكره من سوء عشرتها، ورسول الله ﷺ يخفي في نفسه ما أبلغه الله به أن زيداً سيطلقها، وأنها ستكون زوجة له، ويخشى متى وقع هذا من كلام الناس في قوله: تزوج مطلقة من تبناه وهو زيد بن حارثة.

روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «اتق الله، أمسك عليك زوجك»، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه [١].

٣ - في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، منقبة عظيمة لزيد بن حارثة رضي الله عنه، فقد انفرد بهذا، إذ لم يُسَمِّ القرآن أحداً من الصحابة غيره، قال السهيلي: (كان يقال: زيد بن محمد) حتى نزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾، فقال: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد، فلما نُزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر، وعلم الله وحشته من ذلك شرّفه بخصيصة، لم يكن يَخُصّ بها أحداً من أصحاب النبي ﷺ، وهي أنه سمّاه في القرآن، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ يعني من زينب، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآناً يتلى في المحاريب، نوّه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوّة محمد ﷺ له. ألا ترى إلى قول أُبي بن كعب حين قال له النبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا»، فبكى وقال: أوذكرت هنالك؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أُخبر أن الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآناً يُتلى مخلداً لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن، وأهل الجنة أبداً، لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند رب العالمين، إذ القرآن كلام الله القويم وهو باق لا يبيد، فاسم زيد هذا في الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة، تذكره في التلاوة السفرة الكرام البررة، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له ما نُزع منه [٢].

٤ - زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها كان بأمر ربه، وهو الذي زوَّجه إياها قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وفي هذا شرف عظيم ومنقبة جليلة لزينب رضي الله عنها، كانت تفاخر بها -

(١) البخاري في التوحيد (٤/ ٣٨٨) رقم (٧٤٢٠).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٩٤).

وحق لها ذلك ـ فعن أنس رضي الله عنه قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سموات [١]، وفي رواية أخرى: وكانت تفخرعلى نساء النبي ﷺ، وكانت تقول: إن الله أنكحني في السماء [٢].

ولعلّ هذه المنقبة وهذا الشرف لزينب رضي الله عنها كان جزاء لها، حين أذعنت وخضعت لأمر رسول الله ﷺ حين أمرها بالزواج من مولاه زيد بن حارثة، وكانت لذلك كارهة، ثم لما علمت أن رسول الله ﷺ يأمرها بذلك قبلت الزواج منه [٣].

٥ ـ في وليمته ﷺ على زينب علامة نبوية ودلالة من دلائلها، وهي تكثير الطعام بدعوته، وفي هذه الوليمة أيضاً كان نزول آية حجاب نساء النبي ﷺ، وما شرع من آداب الضيافة [٤].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي أم سليم حيساً فجعلته في تور [٥]، فقالت: يا أنس: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فَقُلْ: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! قال: فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! فقال: «ضعه»، ثم قال: «اذهب فادْعُ لي فلاناً وفلاناً، ومن لقيت»، وسمى رجالاً، قال: فدعوت من سمى ومن لقيت، قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة.

وقال لي رسول الله ﷺ: «يا أنس: هات التور»، قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: «ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه» قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم، فقال لي: «يا أنس، ارفع» قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ على نسائه ثم رجع، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، قال: فابتدروا الباب فخرجوا كلهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل، وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث إلا يسيراً حتى خرج عليَّ، وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ وقرأها على الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ

(١) البخاري في التوحيد، باب، وكان عرشه على الماء (٤/ ٣٨٨) رقم (٧٤٢٠).
(٢) المصدر نفسه، (٤/ ٣٨٨) رقم (٧٤٢١).
(٣) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات (ص ٢١٨).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٢١٨).
(٥) تور: الإناء.

﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] .

قال الجعد [١]: قال أنس بن مالك: أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات، وحُجبن نساءُ النبي ﷺ [٢].

وقد حجب رسول الله ﷺ نساءه لنزول آية الحجاب التي قال المولى ﷻ فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ...﴾ .

وقد كان نزول آية الحجاب من موافقات عمر رضي الله عنه . روى البخاري في صحيحه عن أنس قال: قال عمر رضي الله عنه : قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب [٣].

وبنزول هذه الآية كان تشريع الحجاب، في الإسلام بالنسبة لأزواج النبي ﷺ، والمراد عدم إبداء شيء من أجسامهن للأجانب عنهن، وعدم محادثتهن أو طلب شيء منهن إلا من وراء حجاب، أي ستر يكون بينهن وبين غيرهن، ولما نزلت قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ: ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟ فأنزل الله قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥] .

ونزل أيضاً في شأن نساء النبي في أدب الخطاب والإقامة في البيوت قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ۚ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣] .

وقد فصّل ﷻ - في كتابه الكريم - ما يتعلق بالنساء المسلمات، من غض البصر، وحفظ الفروج، وعدم إبداء مواضع الزينة من عنق وساق وعضد وساعد وشعر، ونحوها من العورة

---

(١) الجعد بن دينار، أبو عثمان اليشكري، البصري من أصحاب أنس.

(٢) مسلم كتاب النكاح قم (١٤٢٨).

(٣) البخاري في التفسير (٦/ ٩٢) رقم (٤٧٩٠).

الظاهرة إلا للمحارم [١]. وقد جاء ذلك في سورة النور، وقد بيّنت السنّة النبوية كل ما يتعلق بالنساء من احتجاب وتصون وتعفُّف، وعدم السفور والخلاعة والابتذال بما لا مزيد عليه [٢].

هذه بعض الدروس والعِبَر استخرجت من قصة زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، وما واكب ذلك الزواج من نزول آيات بيّنات في أحكام الحجاب، وما شرع من آداب الضيافة.

هذا وقد توفّيت زينب بنت جحش رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة، وعمرها ثلاث وخمسون سنة، وكانت كما أخبر النبي ﷺ أول نسائه لحاقاً به [٣]، وقد بلغت مروياتها عن النبي ﷺ وفق كتاب بقي بن مخلد أحد عشر حديثاً [٤]، ولها في الكتب الستة خمسة أحاديث [٥]، اتفق لها في البخاري ومسلم عن حديثين [٦]، فقد تركت ذكراً طيباً في تاريخ الأمة الإسلامية [٧].

المبحث الثاني

الآن نغزوهم ولا يغزوننا [٨]

كان ﷺ يحذّر كل القوى المجاورة، ولا يغفل عن أي قوة منها، وقد صرّح بعد غزوة الخندق بأن الخطة القادمة هي غزو قريش، فقد تغيّرت موازين القوى، وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكثر من قبل، فسعى ﷺ لبسط سيادة الدولة على ما تبقى من قوى حول المدينة، لأن ذلك له صلة بالإعداد لغزو قريش في مرحلة لاحقة، فقد قام ﷺ خلال عام واحد ـ العام السادس ـ بغزوتين وأرسل أربع عشرة سرية، غير ما قام به في نهاية العام الخامس الهجري... وهذه الأعمال والتحركات قصد منها المزيد من إنهاك قوى قريش بإحكام الحصار، وتقليم أظفارها من خلال اقتطاع كل ما يمدها بالقوة من حلفائها [٩]، فقد استثمر رسول الله وأصحابه ما حققوه من نجاح في صد الأحزاب وإفشال خططهم، وردهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم، فباشروا نشاطاً واسع النطاق ضد خصومهم على جميع الجبهات، فقد ضيّقوا

(١) السنة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣١٢).
(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٣١٤).
(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٨/ ١١٥).
(٤) انظر: تلقيح الفهوم لابن الجوزي (ص ٣٧٠).
(٥) انظر: تحفة الأشراف للمزي (١١/ ٣٢١ ـ ٣٢٣).
(٦) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢١).
(٧) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث (ص ٨٥).
(٨) البخاري في المغازي (٥/ ٥٨) رقم (٤١١٠).
(٩) انظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع (ص ١٣٩).

الخناق الاقتصادي على قريش من جديد، كما نفذوا العديد من السرايا لمعاقبة المشركين في الأحزاب من جهة، أو للثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة أو ناصبت الإسلام العداء. وقد تمثّل النشاط العسكري الإسلامي خلال هذه الفترة فيما يلي:

أولاً: سرية محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

كانت العشائر النجدية من أجرأ العناصر البدوية الوثنية على المسلمين، لأن النجديين أهل قوة وبأس وعدد غامر، وقد رأينا كيف أن العمود الفقري لقوات الأحزاب الضاربة، كان من هذه القبائل النجدية، حيث كان رجال هذه القبائل الشرسة يشكلون الأغلبية الساحقة من تلك القوة الضاربة، ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزارة وأسد، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين، فحاصرهم أهل المدينة.

ولهذا فإن أول حملة عسكرية وجهها النبي ﷺ لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب هي تلك الحملة التي جرّدها على القبائل النجدية من بني بكر بن كلاب الذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضرية [١]، على مسافة سبع ليال من المدينة، ففي أوائل شهر المحرم عام خمس للهجرة وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجّه ﷺ [٢] سرية من ثلاثين من أصحابه عليهم محمد بن مسلمة لشن الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من محرم سنة ٦ هـ [٣]، وقد داهموهم على حين غرّة فقتلوا منهم عشرة، وفرّ الباقون، وغنم المسلمون إبلهم وماشيتهم؟ وفي طريق عودتهم أسروا ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة وهم لا يعرفونه، فقدموا به المدينة وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك. إن تنعم تنعم على شاكر فتركه حتى كان بعد الغد فقال: «ما عندك يا ثمامة؟»، فقال: عندي ما قلت لك، فقال: «أطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليَّ: والله ما كان بلد أبغض إليَّ من بلدك فأصبحت بلدك أحب البلاد إليَّ، وأن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله ولكني أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى

---

(١) قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد.

(٢) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٢٤).

(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي (ص ٣٥١).

يأذن فيها النبي ﷺ [١]، وقد أبر بقسمه مما دفع وجوه مكة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام [٢]، فاستجاب النبي ﷺ لرجاء قومه بالرغم أنه في حالة حرب معهم، وكتب إلى سيد بني حنيفة ثمامة: «أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم...» فامتثل ثُمامة أمر نبيه، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكة فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة [٣]، وفي هذه القصة دروس وعِبَر منها:

١ ـ جواز ربط الكافر في المسجد.

٢ ـ جواز المن على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حباً في ساعة واحدة، لما أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمنّ بغير مقابل.

٣ ـ الاغتسال عند الإسلام كما فعل ثمامة حين أسلم.

٤ ـ الإحسان يزيل البغض وينبت الحب.

٥ ـ يشرع للكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم أن يستمر في عمل ذلك الخير.

٦ ـ الملاطفة لمن يرجى إسلامه من الأسارى، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه [٤].

٧ ـ الإسلام يُغير سلوك المؤمن حين يضع المسلم قدراته تحت إمرة الإسلام والمسلمين، كما فعل ثمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكة إلا بإذن من الرسول عليه الصلاة والسلام.

٨ ـ ينبغي أن يخلع المؤمن على عتبة الإيمان ـ وعند تركه للكفر ـ كل علاقاته السابقة، والتزامه بأوامر رب العالمين بعد إيمانه [٥].

ثانياً: سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر:

تعتبر سريةِ أبي عبيدة إلى سيف البحر، استمراراً لسياسة النبي ﷺ العسكرية لإضعاف قريش ومحاصرتها اقتصادياً، على المدى الطويل، فقد بعث ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة راكب قبل الساحل، ليرصدوا عيراً لقريش، وعندما كانوا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش، فجُمع فكان قدر مزود تمر، يقوتهم منه كل يوم قليلاً، حتى كان أخيراً نصيب الواحد منهم تمرة واحدة، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف فتقبلوا هذا الإجراء بصدور رحبة دون تذمر أو ضجر، بل إنهم ساهموا في خطة قائدهم التقشفية، فصاروا يحاولون الإبقاء

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٣٠).

(٢) المصدر نفسه، (١/ ٣٣٠).

(٣) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٢٩٨)؛ الاستيعاب لابن عبد البر ترجمة ثمامة بن أثالة الحنفي.

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٣٨٦، ٣٨٧).

(٥) المصدر نفسه، (ص ٣٨٧).

على التمرة أكبر وقت ممكن [١]، يقول جابر ﷺ أحد أفراد هذه السرية: (كنا نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل) [٢] وقد سأل وهب بن كيسان جابراً ﷺ: ما تغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت [٣].

وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشجر، قال جابر ﷺ: وكنا نضرب بعصينا الخَبَط [٤]، ثم نبله بالماء فنأكله [٥] (فسمي ذلك الجيش جيش الخَبَط) [٦]، وقد أثر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة - ﷺ - أحد جنود هذه السرية الشجاعة، وهو رجل من أهل بيت اشتهر بالكرم، فنحر للجيش ثلاث جزائر [٧]، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه [٨].

فبينما هم كذلك من الجوع والجهد الشديدين إذ زفر البحر زفرة أخرج فيها حوتاً ضخماً، فألقاه على الشاطىء، ويصف لنا جابر بن عبد الله ﷺ مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب فيقول: وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم [٩]، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر [١٠]، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً، ونحن ثلاثمائة حتى سمنَّا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب [١١] عينيه بالقلال [١٢] الدهن. ونقتطع منه الفدر [١٣] كالثور، أو قدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينيه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رجل أعظم بعير منا فمر من تحتها [١٤]، وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ [١٥] فقال: «ما حبسكم؟» قلنا: كنا نتبع

---

(١) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١١٨).
(٢) أبو داود كتاب الأطعمة، رقم (٣٨٤٠).
(٣) فتح الباري (٨/ ٧٧).
(٤) الخبط: ضرب الشجر بالعصا لينائر ورقها، واسم الورق والساقط خَبَط.
(٥) شرح النووي (١٣/ ٨٤).
(٦) فتح الباري (٨/ ٧٨).
(٧) جمع جزور، والجزور: البعير، أو خاص بالناقة.
(٨) فتح الباري (٨/ ٧٨).
(٩) الكثيب: التل من الرمل.
(١٠) العنبر: سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس.
(١١) الوقب: النقرة التي تكون فيها العين.
(١٢) القلال: الجرة العظيمة.
(١٣) الفدر: جمع فدرة وهي القطعة من اللحم.
(١٤) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١٢١).
(١٥) انظر: شرح النووي (١٣/ ٨٥ - ٨٧).

عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدابة [١]. فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا»، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله [٢]. كانت هذه السرية على الأرجح قبل صلح الحديبية، وليس في رجب سنة ثمان كما ذكر ابن سعد [٣]، وذلك لسببين: **السبب الأول**: أن الرسول ﷺ لم يغز ولم يبعث سرية في الشهر الحرام، **والثاني**: أن رجب سنة ثمان هو ضمن فترة سريان صلح الحديبية [٤].

وذكر ابن سعد والواقدي [٥]، أن النبي ﷺ بعثهم إلى حي من جهينة، وقال ابن حجر [٦]: إن هذا لا يغاير ظاهره ما في الصحيح، لأنه يمكن الجمع بين كونهم يتلقون عيراً لقريش ويقصدون حياً من جهينة، ويحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم، بل لحفظهم من جهينة. ويقوى هذا الجمع ما عند مسلم [٧]، أن البعث كان إلى أرض جهينة [٨]. وفي هذه القصة دروس وعِبَر منها:

١ ـ حكمة أبي عبيدة رضي الله عنه حيث جمع الأزواد، وسوى بين المجاهدين في التوزيع، ليستطيع تجاوز الأزمة بهم، وذلك درس تعلمه من رسول الله ﷺ عملياً أكثر من مرة.

٢ ـ كرم قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما، في وقت عصيب، ليس بيده يومها ما يخفف عن الناس، ففي رواية الواقدي: (أن قيس بن سعد رضي الله عنه استدان هذه النوق من رجل جهني، وأن أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه قائلاً: تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك [٩]، فأراد أبو عبيدة الرفق به [١٠].

وقد بدأ قيس ينحر حتى نهاه أبو عبيدة، فقال له قيس: يا أبا عبيدة أترى أن أبا ثابت يقضي ديون الناس ويحمل الكل ويطعم في المجاعة، لا يقضي عني تمر القوم مجاهدين في سبيل الله [١١]، وقال ذلك قيس لأبي عبيدة، لأنه قد اتفق مع رجل من جهينة على أن يشتري منه نوقاً ينحرها للجيش على أن يعطيه بدل ذلك تمراً بالمدينة، وقد وافق الجهني على تلك الصفقة.

---

(١) صحيح سنن النسائي للألباني (٣/ ٩١٠).
(٢) شرح النووي (١٣/ ٨٧).
(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٢)، والذهبي في المغازي (ص ٥١٩).
(٤) انظر: المجتمع المدني للعمري (ص ١٢٥).
(٥) انظر: المغازي (٢/ ٧٧٤)؛ السيرة النبوية على ضوء مصادرها الأصلية (ص ٤٨٠).
(٦) انظر: السيرة النبوية على ضوء مصادرها الأصلية (ص ٤٨٠).
(٧) مسلم (٣/ ١٥٣٧) رقم (١٩٣٥).
(٨) انظر: السيرة النبوية على ضوء مصادرها الأصلية (ص ٤٨٠).
(٩) انظر: معين السيرة (ص ٣٢٣)؛ السرايا والبعوث النبوية (ص ١١٩).
(١٠) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ١١٩).
(١١) انظر: من معين السيرة (ص ٣٢٣) نقلاً عن الزرقاني في شرحه (٢/ ٢٨٢).

وعندما علم سعد بن عبادة بنهي أبي عبيدة لقيس بحجة أنه لا مال له، وإنما المال لأبيه، وهب ابنه أربعة حوائط أدناها يُجذ منه خمسون وسقاً [١].

٣ ـ الحلال والحرام:

إن المسلمين في هذه السرية بلغ بهم الجوع غايته، فكانت التمرة الواحدة طعام الرجل طوال يوم كامل في سفر ومشقة، ويمرون ـ وهم على تلك الحال من فقد التمر وأكل الخبط على الجهني ـ الذي اشترى منه قيس ـ أو على قومه ـ فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم، كما كانت الحال في الجاهلية، لأنهم اليوم ينطلقون بدين الله الذي جاء ليحفظ على الناس أموالهم ـ في جملة ما حفظ ـ وهم اليوم يفرقون بين الحلال والحرام الذي تعلموه من منهج رب العالمين [٢].

٤ ـ جواز أكل ميتة البحر:

وتدل القصة على جواز أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في قوله ﷻ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المَائدة: ٣] .

وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المَائدة: ٩٦] .

وقد صح عن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عباس وجماعة من الصحابة «أن صيد البحر ما صيد منه، وطعامه ما مات فيه»، وفي السنن عن ابن عمر مرفوعاً موقوفاً: «أحلت لنا ميتتان ودمان: فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان الكبد والطحال» [حديث حسن].

كما أن في أكل الرسول ﷺ من لحم الحوت الذي تغذى منه المسلمون مدة دليل على مشروعية أكل ميتة البحر [٣].

٥ ـ بعض الأحكام التي ذكرها الإمام النووي:

قال النووي: في هذا الحديث جواز صدِّ أهل الحرب واغتيالهم والخروج لأخذ مالهم واغتنامه، وأن الجيوش لا بدّ لها من أمير يضبطها، وينقادون لأمره ونهيه، وأنه ينبغي أن يكون الأمير أفضلهم، أو من أفضلهم، قالوا: ويستحب للرفقة من الناس ـ وإن قلوا ـ أن يؤمِّروا أحدهم عليهم، وينقادوا له، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للرفقة من المسافرين خلط أزوادهم ليكون أبرك، وأحسن في العشرة وأن لا يختص بعضهم بأكل دون بعض والله أعلم [٤].

---

(١) انظر: معين السيرة (ص ٣٢٣).
(٢) المصدر نفسه، (ص ٣٢٤).
(٣) انظر: السيرة في ضوء مصادرها الأصلية (٤٨٠).
(٤) شرح النووي على مسلم (٨٦/١٣).

ثالثاً: سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

كانت هذه السرية قد وجهت إلى أبعد مدى وصلت إليه الجيوش النبوية في الجزيرة العربية، ودومة الجندل قريبة من تخوم الشام، فهي أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق، وهي تقوم في قلب الصحراء العربية واسطة الصلة بين الروم في أرض الشام والعرب في الجزيرة، وسكانها من قبيلة كلب الكبرى، وقد دخلوا في النصرانية، نتيجة جوارهم وتأثرهم بجوار الروم النصارى، وهذه السرية تدخل ضمن مخطط النبي ﷺ في احتكاكه مع الامبراطورية الرومانية.

وأما أمير السرية فهو عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن رجال الرعيل الأول، فقد كان إحدى الدعائم الكبرى للدعوة الإسلامية، منذ دخوله فيها على يد الصديق رضي الله عنه، ومهمة هذه السرية ذات جانبين: مهمة دعوية، ومهمة حربية. لذلك انتدب لها عبد الرحمن بن عوف الذي تربّى على محض الإسلام منذ أيامه الأولى [1].

وعن هذه السرية حدّثنا عبد الله بن عمر فقال: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف فقال: «تجهّز فإني باعثك في سرية في يومك هذا، أو من غد إن شاء الله». قال ابن عمر: فسمعت ذلك فقلت: لأدخلنَّ فلأصلين مع النبي الغداة، فلأسمعنَّ وصيته لعبد الرحمن بن عوف.

قال: فغدوتُ فصليت فإذا أبو بكر وعمر، وناس من المهاجرين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن: «ما خلَّفك عن أصحابك؟» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السحر، فهم معسكرون بالجُرْف وكانوا سبعمائة رجل، فقال: أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك، وعليّ ثياب سفري.

قال: فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده، ثم عمّمه بعمامة سوداء، فأرخى بين كتفيه منها، ثم قال: «هكذا فاعتم يا ابن عوف!» قال: وعلى ابن عوف السيف مُتوشِّحه. ثم قال رسول الله ﷺ: «اغزُ باسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، لا تَغُلَّ ولا تغدر ولا تقتل وليداً». قال ابن عمر: ثم بسط يده، فقال: «يا أيها الناس، اتقوا خمساً قبل أن يُحل بكم: ما نقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون، وما نكث قوم عهدهم إلا سلّط الله عليهم عدوهم، وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السماء، ولولا البهائم لم يُسقطوا، وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلّط الله عليهم الطاعون، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيعاً، وأذاق بعضهم بأس بعض».

قال: فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه، فسار حتى قدم دُومة الجندل، فلما حلّ بها

---

(١) التربية القيادية (٤/ ١٦٧، ١٦٨).

دعاهم إلى الإسلام، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أول ما قدم يعطونه إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو والكلبي وكان نصرانياً وكان رأسهم. فكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جهينة يقال له: رافع بن مكيث، وكتب يخبر النبي ﷺ أنه قد أراد أن يتزوج فيهم، فكتب إليه النبي ﷺ أن يتزوج بنت الأصبغ تماضر. فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها، ثم أقبل بها، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف. وذكر الواقدي أن هذه السرية في شعبان سنة ست [١].

وفي هذه السرية دروس وعِبَر منها:

١ - تواضع النبي ﷺ لأصحابه وشفقته عليهم، حيث ألبس عبد الرحمن بن عوف عمامته بيده، وهذا التواضع منه ﷺ يرفع من معنويات الصحابة ﷺ، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطاقة في سبيل خدمة هذا الدين، لأن التلاحم والمودة بين القائد وجنوده من أهم عوامل نجاح العمل وتحقيق الأهداف [٢].

٢ - كان جيش عبد الرحمن جيش مبادىء وعقيدة، فتحرك ضارباً في هذه الصحراء المترامية يحمل شرع الله إلى خلقه، وهدي رسوله إلى أمته، مستوعباً لمقاصد الجهاد وأحكامه، فالجهاد ليس باسم محمد ﷺ فهو عبد الله ورسوله، ولا مكان لزعيم، أو أمة، أو قبيلة، أو راية أو وطن، أو جيش، أو قومية بجوار هذه الراية الخفاقة في هذا الوجود راية الله تعالى. «اغْزُ باسم الله» فحزب الله تعالى هو الذي يحيي هذه الصحراء الظمأى بغيث العقيدة الخالصة عقيدة التوحيد [٣]، وهدفهم من هذا التحرك في سبيل الله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

قتالهم لمن كفر بالله وليس القتال على المبدأ الجاهلي.

وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

أما هذا الجيش القوي الفتي، فهو يمضي في الأرض قدماً ليقاتل من كفر بالله [٤].

٣ - ثم نهى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف عن الغلول - وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها - ونهاه عن الغدر في العهود، وعن قتل الولدان، وتلك نماذج من الأدب الإسلامي في الجهاد، فالقتال نوع من العنف والقسوة، ولكنه بالنسبة للمسلمين الذين

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٠ - ٥٦١).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٤).
(٣) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٧١).
(٤) المصدر نفسه، (٤/ ١٧٢).

طهّر الله تعالى قلوبهم من الغل والحسد أمر عارض لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وحماية المحقين من المبطلين، وليس متأصلاً في نفوسهم، ولذلك كان محفوفاً بالآداب السامية التي تجعل الإنسان الواحد جامعاً بين منتهى القوة والبطش ومنتهى الرحمة والعطف [١].

٤ ـ كان عبد الرحمن بن عوف ﷺ سيداً من سادات هذه الأمة، وواحداً من أكبر دعاتها، فهو يملك من الحلم، والحكمة والثقافة، والتجربة والعبقرية، والقدم في الإسلام، والبلاء فيه ما لا يملكه غيره، ولهذا بذل كل طاقاته لتحقيق الهدف الرئيسي الأول، وهو الدخول في الإسلام، وكان متريثاً هادياً خبيراً بالنفوس والقلوب، فشحن كل الإمكانات الفكرية والحركية، لإنجاح هذه المهمة العظمى، وتكلل عمله بفضل الله تعالى بالنجاح الكبير، وخاصة أن الجهد انصب على إقناع الرئيس، حسب توجيهات المصطفى ﷺ.

٥ ـ إن إسلام سيد بني كلب في دومة الجندل الأصبغ بن عمرو على يد عبد الرحمن بن عوف، يذكرنا بجعفر بن أبي طالب الذي أسلم على يديه النجاشي ملك الحبشة، ومصعب بن عمير بالمدينة، حيث استجاب له سادات الأوس والخزرج وزعامتهم للإسلام، وهذه الشخصيات العظمى الثلاثة هم من الرواد الأوائل، ومن المؤسسين في المدرسة الإسلامية الأولى بمكة المكرمة.

هذا عبد الرحمن بن عوف الذي أصيب بأحد عشر جرحاً أدّت بعضها إلى أن يكون عنده عرج من شدّتها، يصنع ركائز العقيدة الإسلامية بجيشه المظفر شمال الجزيرة العربية، وينضم الكثيرون إلى الإسلام، لتغدو دومة الجندل موقعاً جديداً من المواقع الإسلامية، في هذه الأطراف المتنامية، فلا غنى للمسلمين عن هذه القلعة، وعن هذه الموقعة للمستقبل القريب في المواجهة مع العرب والروم المناوئين للإسلام [٢].

وهذه أول مرة يحكم الإسلام خارج حدوده، ويتعايش المسلمون والنصارى في دولة واحدة، فالذين أسلموا تطبق عليهم أحكام الإسلام، والذين بقوا على نصرانيتهم تؤخذ منهم الجزية، وكان هذا الانفتاح تدريباً جديداً للصحابة على المجتمعات الجديدة، التي سينتقلون إليها فيما بعد، وينساحون في العراق والشام وفي قلب فارس والروم، ليعلموا الناس أن العقيدة تنبني من خلال الحوار لا من خلال السيف، وأن مبادىء الإسلام لها قوتها الذاتية التي تشع أنوارها على المجتمعات التي قد انغمست في الظلام البهيم [٣].

٦ ـ إن زواج عبد الرحمن بن عوف من ابنة سيد بني كلب زعيم دومة الجندل، يقوي الروابط

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٤).
(٢) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٧٤).
(٣) المصدر نفسه، (٤/ ١٧٥).

بين الزعيم المسلم الجديد بدومة الجندل، وبين دولة الإسلام في المدينة، ويربط مصيره بمصير دولة الإسلام، ومصير الإسلام نفسه حين يشعر أن فلذة كبده مقيمة في العرين الإسلامي الذي أصبح يحن له حنينه لأرضه وبلده [١].

وقد كان ﷺ يحرص على أن يتزوّج هو وقادته ببنات سادة القبائل، لأن ذلك كسب كبير لدعوة الإسلام حيث تكون المصاهرة سبباً في القرب وامتصاص أسباب العداء ثم الدخول في الإسلام[٢].

رابعاً: تأديب الغادرين... غزوة بني لحيان، وغزوة الغابة وغيرهما:

١ ـ بعد رحيل الأحزاب انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم، وأصبحوا يمسكون بأيديهم زمام المبادرة، وحان الوقت لتأديب بني لحيان الذين غدروا بخبيب وأصحابه يوم الرجيع وأخذ ثأر الشهداء، فخرج إليهم النبي ﷺ في مائتي صحابي، في ربيع الأول أو جمادي الأولى سنة ست من الهجرة [٣].

أ ـ تضليل العدو:

كانت أرض بني لحيان من هُذيل تبعد عن المدينة أكثر من مئتين من الأميال، وهي مسافة بعيدة، يلاقي مشاقاً كبيرة كل من يريد قطعها، ولكن النبي ﷺ كان حريصاً على الاقتصاص لأصحابه من الذين استشهدوا (غدراً) على يد هذه القبائل الهمجية التي لا قيمة للعهود عندها.

وكما هي عادة النبي ﷺ في تضليل العدو الذي يريد مهاجمته، اتجه بجيشه نحو الشمال بينما تقع منازل بني لحيان في أقصى الجنوب.

وقد أعلن النبي ﷺ قبل تحركه نحو الشمال: أنه يريد الإغارة على الشام، وحتى أصحابه لم يعلموا أنه يريد بني لحيان إلا عندما انحرف بهم نحو الجنوب، بعد أن اتجه بهم متوغلاً نحو الشمال حوالي عشرين ميلاً... في حركة تمويهية على العدو بارعة.

وكان تغيير خط سيره من الشمال إلى الجنوب عند مكان يقال له (البتراء)، ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتى استقام على الجادة منصبًّا نحو الجنوب [٤].

ب ـ فرار اللحيانيين قبل وصول النبي ﷺ:

كانت بنو لحيان على غاية التيقظ والانتباه، فقد بثت الأرصاد والجواسيس في الطرق ليتحسسوا لها ويتجسسوا لذلك، فما كاد النبي ﷺ يقترب بجيشه من منازلهم حتى انسحبوا منها

---

(١) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٧٤).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصلية (٤٦٨).
(٤) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٣٤، ٣٥).

فارين، وهربوا في رؤوس الجبال، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم.

ولما وصل النبي ﷺ بجيشه عسكر في ديارهم ثم بث السرايا من رجاله، ليتعقبوا هؤلاء الغادرين، ويأتوا إليه بمن يقدرون عليه، واستمرت السرايات النبوية في البحث والمطاردة يومين كاملين إلا أنها لم تجد أي أثر لهذه القبائل، التي تمنعت في رؤوس تلك الجبال الشاهقة، وأقام ﷺ في ديارهم يومين لإرهابهم وتحديهم، وليظهر للأعداء مدى قوة المسلمين وثقتهم بأنفسهم، وقدرتهم على الحركة حتى إلى قلب ديار العدو متى شاؤوا [١].

جـ ـ إرهاب المشركين بمكة:

رأى النبي ﷺ أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكة، فقرر أن يقوم بمناورة عسكرية يرهب بها المشركين في مكة، فتحرك بجيشه حتى نزل به وادي عُسفان [٢]، وهناك استدعى أبا بكر الصديق، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه، وأمره بأن يتحرك بهم نحو مكة؛ ليبث الذعر والفزع في نفوسهم. فاتجه الصديق بالفرسان العشرة نحو مكة حتى وصل بهم كُراع الغميم [٣]، وهو مكان قريب جداً من مكة، فسمعت قريش بذلك فظنت أن النبي ﷺ ينوي غزوها فانتابها الخوف والفزع والرعب، وساد صفوفها الذعر، هذا هو الذي هدف إليه النبي ﷺ بهذه الحركة التي كلف الصديق أن يقوم بها.

أما الصديق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم، وعلموا أنهم قد أحدثوا الذعر والفزع في نفوس أهل مكة، عادوا سالمين إلى النبي ﷺ فتحرك بجيشه عائداً إلى المدينة [٤].

د ـ الترحم على الشهداء:

عندما وصل النبي ﷺ إلى بطن (غُران) [٥]، حيث لقي الشهداء من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة من هذيل، ترحّم على هؤلاء الشهداء ودعا لهم [٦].

٢ ـ غزوة الغابة [٧]:

لم تكد تمضي ليال قلائل على عودة رسول الله ﷺ من غزوته لبني لحيان، حتى أغار

---

(١) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٣٦).
(٢) عسفان: قرية بين مكة والمدينة على نحو يومين من مكة.
(٣) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد.
(٤) انظر: صلح الحديبية (ص ٣٧).
(٥) غران بضم أوله: واد بين ساية ومكة.
(٦) انظر: صلح الحديبية (٣٨).
(٧) الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة.

عيينة بن حصن الفزاري في خيل لغطفان، كان عددها أربعين على لقاح (الإبل الحوامل ذوات الألبان) لرسول الله ﷺ بالغابة، وقتلوا ذر بن أبي ذر الغفاري، وأسروا زوجته ليلى، واستاقوا الإبل التي كان عددها عشرين، ولما علم الرسول ﷺ بخبر عيينة، خرج في خمسمائة من أصحابه في إثره، بعد أن استخلف سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه، يحرسون المدينة [١].

وعند جبل من ذي قَرَد [٢]، أدرك رسول الله ﷺ العدو، فقتل بعض أفراده واستنقذ الإبل [٣].

وقد أبدى سلمة بن الأكوع في هذه المعركة بطولة نادرة، وخاصة قبل وصول كتيبة الفرسان النبوية، حيث كان ضمن الرعاة في منطقة الغابة، وظل بمفرده يشاغل المغيرين ويراميهم بالنبل، وكان من أعظم الرماة في عصره، وقد استخلص مجموعة من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان [٤].

أما المرأة التي أسرها المغيرون من غطفان وهي زوجة ابن أبي ذر ـ الذي قتله المشركون أثناء الغارة في الغابة ـ فقد عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقة تابعة لرسول الله ﷺ، وقد نذرت إن نجاها الله ﷻ لتنحرنَّ تلك الناقة، فلما أخبرت النبي ﷺ عن نذرها تبسم وقال: «بئسما جزيتيها» (أي أنها حملتك ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النحر)، ثم قال لها ﷺ: «لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين» [٥].

وقد عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليال خارجها [٦].

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبية التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه ضد أعراب نجد، بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة وقبل غزوة خيبر [٧]، وتتابعت سرايا رسول الله ﷺ بعد غزوة قَرَد لتأديب المشركين، فنجحت بعض هذه السرايا، وتعثر بعضها الآخر، وكان أبرزها سرية عكاشة بن محصن الأسدي التي عُرفت بسرية الغَمْر [٨]، وقد بعثها رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة، إلى بني أسد، فوصلت إلى موضع يقال له الغَمْر، فوجدت القوم قد هربوا وتفرقوا في الجبال القريبة، فأغار عكاشة وأصحابه على نعم لهم فغنموا مائتي

(١) انظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس (٢/ ٧٢، ٧٣).
(٢) ذو قَرَدَ: ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي غطفان.
(٣) انظر: التاريخ السياسي العسكري (ص ٣٢٧).
(٤) انظر: صلح الحديبية (ص ٤٣).
(٥) انظر: صلح الحديبية(ص ٤٥).
(٦) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٢٧).
(٧) انظر: صلح الحديبية (ص ٤٥).
(٨) الغمر: ماء لبني أسد على ليلتين من فيد الذي هو قلعة بطريق مكة.

بعير، وعادوا إلى المدينة [١].

ومن أبرزها أيضاً سرية محمد بن مسلمة الأنصاري إلى ذي القصة [٢] لإرهاب بني ثعلبة وعُوال، ومنعهم من الإغارة على سرح المدينة، وفي شهر ربيع الثاني سنة ست من الهجرة خرج محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين حتى وردوا عليهم ليلاً، فأحدق بهم القوم وهم مائة رجل، فتراموا ساعة من الليل، ثم حملت عليهم الأعراب بالرماح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحاً، ولم يتمكن من العودة إلا بعد أن مرّ به رجل من المسلمين، فحمله حتى ورد به المدينة [٣].

وعلى الأثر بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلاً إلى منازلهم، فلم يجدوا أحداً، ولكنهم غنموا بعض نعمهم، فساقوها وعادوا بها إلى المدينة [٤].

وفي شهر جمادى الأولى من السنة نفسها، كانت سرية زيد بن حارثة الثانية إلى العيص [٥] في سبعين ومائة راكب، لاعتراض قافلة لقريش كانت مقبلة من الشام، فأدركها وأخذها وما فيها وأسر بعض أفرادها، كان منهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله، وأمّه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوجة رسول الله ﷺ، والمغيرة بن معاوية بن أبي العاص [٦]. وفي شعبان سنة ست من الهجرة خرجت سرية بقيادة علي بن أبي طالب لتأديب بني سعد بن بكر الذين جمعوا الناس لإمداد يهود خيبر، وقد بعثه رسول الله ﷺ في مائة من المسلمين، فأغار عليهم، وغنم بعض نعمهم وعاد بها إلى المدينة [٧].

كانت هذه السرية تأديباً لكل من تسوّل له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع، حيث علمت تلك القبائل أن عين المدينة يقظة لكل ما يدور حولها، وأن جميع التحركات كانت تحت المراقبة [٨]. فقد تميّزت الدولة الإسلامية بدقة رصدها لأعدائها، وهكذا يكون التخطيط الحربي السليم، وذلك بقطع الطريق على تجمع الأعداد الكبيرة حتى بالإمدادات الصغيرة [٩].

إن حركة السرايا والبعوث ـ التي كان يقودها رسول الله ﷺ ـ ترشد المسلمين إلى أهمية

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٦٤٠).
(٢) ذو القصة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الربذة.
(٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٢٨).
(٤) الواقدي (١/ ٥٥١).
(٥) العيص: بينها وبين المدينة أربع ليال.
(٦) انظر: محمد رسول الله، محمد رضا (ص ٢٤٥، ٢٤٦).
(٧) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (٣٣٠).
(٨) انظر: من معين السيرة (ص ٣٢٥).
(٩) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/ ١٨٩).

متابعة أخبار الأعداء وجمع المعلومات عنهم، فقد كانت المعلومات تتجمع عند رسول الله ﷺ من مصادر متعددة: سراياه الاستطلاعية، المسلمين المتخفين، المتعاطفين مع المسلمين، المعاهدين، الفراسة واستكشاف ما وراء السطور، المهم أن رسول الله ﷺ ما كان يفاجأ بتآمر داخلي أو تهديد خارجي، وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضية يجب أن يعطوها كامل الاعتبار، مع ملاحظة الضوابط الشرعية [١].

خامساً: سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين:

قدم على رسول الله ﷺ جماعة من عُكَل [٢] وعرينة [٣]، في شوال من العام السادس الهجري [٤]، وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذودٍ [٥] وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها ويتمسحوا بأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحَرَّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذّود. فبلغ النبي ﷺ خبرهم فبعث الطلب في آثارهم [٦]، فقبضوا عليهم فأمر بهم فسملوا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم، قال قتادة راوي الحديث: بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة [٧].

وقال أبو قلابة في حديثه: (هؤلاء قوم سرقوا وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله) [٨].

قال الجمهور: إن الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المَائدة: ٣٣] قد نزلت في هؤلاء العرنيين [٩] وقيلت أسباب أخرى في نزولها [١٠].

---

(١) انظر: الأساس في السنة (٢/ ٧١٢).
(٢) عكل: قبيلة من تيم الرباب.
(٣) عرينة: حي من بجيلة.
(٤) من رواية الواقدي (٢/ ٥٦٨) معلقة وابن سعد (٢/ ٩٣) معلقة.
(٥) الذود: الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل ما بين الثنتين إلى التسعة.
(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٧٨).
(٧) المصدر نفسه، (ص ٤٧٨).
(٨) المصدر نفسه، (ص ٤٧٨).
(٩) انظر: سبل الهدى والرشاد للشامي (٦/ ١٨١ ـ ١٩٠) فيها تفصيل.
(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤).

وعلى كل حال، فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فهذا الحكم باق حتى يومنا هذا، وأدل دليل على ذلك ما أجمع عليه المسلمون من وجود حكم الحرابة في الإسلام، سواء كانت الآية نزلت في الكفار أم في المسلمين. وهذه الآية نازلة في المشركين كما في البخاري، فدل ذلك على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وكون المثلثة منسوخة أو منهياً عنها، وأن النبي ﷺ سمل أعين العرنيين، لا يستدل به في هذه القضية لكون العرنيين سملوا أعين الرعاة، فصار سمل النبي ﷺ لهم قصاصاً لا مثلة [1].

إن حادثة العريني ترتب عليها تنفيذ حكم الحرابة، ونزول آيات بيّنات في هذا الحكم، فقد حصر المولى ﷻ جزاء المحاربين في أربعة أمور، وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر.

ثم إنه وصف هؤلاء المحاربين بأوصاف يشمئز منها كل عاقل، ذلك أنه وصفهم بأنهم حرب لله تعالى ولرسوله ﷺ، وأنهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكانها، وتقتيلهم وسلبهم، ونهب ممتلكاتهم ظلماً وجوراً، لا مستند لهم ولا باعث إلا الإفساد والطغيان، فكانت رحمة الله تعالى الرحيم بهم وبغيرهم من خلقه مقتضية الحكم عليهم بواحد من أمور أربعة وهي: القتل والصلب، وقطع الأيدي، والأرجل من خلاف، والإبعاد من مخالطة العامة، وعزلهم عنها بالنفي والتغريب حتى لا تتكرر منهم تلك الجرائم الشنيعة، وحتى يرتدع غيرهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشنيع، ولكي يطهرهم ما يوقع بهم من عقاب، من الذنوب والآثام إن هم تابوا ورجعوا إلى رشدهم وصوابهم.

ثم إن هؤلاء لهم ذلة ومهانة في الحياة الدنيا لأذيتهم المسلمين، وقد علّل الله تعالى لحوق تلك الرذيلة بهم، مدة الحياة الدنيا، بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة، وباقية معهم إلى يوم القيامة، لكون الله جلّ وعلا أعد لهؤلاء في الآخرة عذاباً عظيماً.

ثم استثنى جلّ وعلا من هؤلاء من أناب إليه ورجع، في أسلوب حكيم مؤثر داع إلى رجوعهم وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة، فلقد عفا عنهم تعالى إذا ما رجعوا وجاءوا تائبين قبل القدرة عليهم، لكون تلك التوبة مظنة لصدقهم في توبتهم ورجوعهم عن غيهم، لأنهم رجعوا قبل القدرة عليهم، وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم أنهم إن قدر عليهم قبل التوبة لا ينالون من العفو ما ينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم، وهذا نوع من العلاج في غاية الدقة والإنصاف، وفيه من الحفز على التقليل من هذه الجريمة وتركها ما لا يخفى على ذي عقل لبيب.

---

(١) انظر: علاج القرآن الكريم للجريمة، د. عبد الله الشنقيطي (ص ٢٩٧، ٢٩٨).

وكذلك الشأن في جميع أساليب القرآن الكريم العلاجية، كلها توافق الذوق السليم والعقل الراجح المتزن المتمتع بصفاء الفطرة السليمة.

ثم ختم تعالى الآيتين الكريمتين بأنه غفور رحيم لمن تاب منهم وأصلح، فلا يقنط من رحمته الواسعة، ولا يحول بين العبد ورحمة ربه، ومغفرته، عظيم ذنبه، وجسيم خطئه، ما لم يقارف شركاً. وفي الجملة فقد عالجت الآيات القرآنية الحرابة في المجتمع الإسلامي علاجاً لا مزيد عليه وذلك واضح مما يلي:

١ ـ وصف المحارب بأنه محارب لله تعالى ولرسوله ﷺ.

٢ ـ عظم الجزاء المترتب على الحرابة أياً كان هو.

٣ ـ مكانته الدنيئة في الدنيا والآخرة إن لم يتب.

٤ ـ يظهر علاج القرآن الكريم لهذه الجريمة الشنعاء، بفتحه باب التوبة لمتعاطيها على مصراعيه، حتى لا يكون سده في وجهه حافزاً له على التمادي في جرمه والاستمرار في عتوه (١).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

وهكذا كانت حركة بناء المجتمع وإقامة الدولة متشابكة في قضاياها العسكرية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية.

المبحث الثالث

تصفية المحرضين على الدولة

أولاً: سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن أبي الحقيق:

كان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق ـ من يهود بني النضير ـ كثير التحريض على الدولة الإسلامية، حتى إنه جعل لغطفان ومن حولها من قبائل مشركي العرب الجعل العظيم، إن هي قامت لحرب رسول الله ﷺ، وشاع أمر أبي رافع وانتشر، وكان ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ، وأصبح تحريضه على دولة الإسلام من الأخطار التي يجب أن يوضع لها الحد (٢).

(١) انظر: علاج القرآن الكريم للجريمة (ص ٣١٣ ـ ٣١٥).

(٢) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي (ص ٢١٢).

١ ـ توجه السرية إلى خيبر ودخولها:

فبعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمرَّ عليهم عبد الله بن عتيك... وكان أبو رافع في حصن له، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلّي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنّع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت، فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علّق الأغاليق على وتد، وقال ابن عتيك: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب [١].

٢ ـ تنفيذ العقوبة بحق أبي رافع:

ودخل أبو عتيك رضي الله عنه ومن معه من أفراد سريته إلى داخل الحصن. وأخذوا ينتظرون الفرصة المناسبة لقتل هذا اليهودي الخبيث أبي رافع.

وقد جاء في البخاري: أن عبد الله بن عتيك أدرك نفراً من أصحاب أبي رافع يسمرون عنده، وكان في علالي له، فكمن حتى ذهب عنه أهل سمرة صعد إليه، وكلما دخل باباً أغلقه عليه، من الداخل حتى لا يحول أحد بينه وبين تنفيذ العقوبة بحق أبي رافع، فانتهى إلى أبي رافع، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا يدري أين هو من البيت، قال ابن عتيك: فقلت: يا أبا رافع.

قال: من هذا؟

قال ابن عتيك: فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئاً.

وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد ثم دخلت إليه.

فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟

قال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف.

قلت: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته.

فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟، فلما صاح الديك قام الناعي على

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٦٥).

السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقالت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع فانتهيت إلى النبي ﷺ، فحدّثته فقال: «ابسط رجلك»، فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط [١].

وقد ذكرت كتب السيرة أن امرأة أبي رافع حينما ضُرب بالسيف صاحت فأراد قتلها ثم كفّ عن ذلك، لأن رسول الله ﷺ قد نهاهم عن قتل النساء والصبيان [٢]، وأن ابن عتيك كان يرطن بلغة اليهود وأنه استخدمها مع زوجة أبي رافع اليهودي وأهل بيته.

ويذكر كتاب السيرة أن سرية ابن عتيك كلها شاركت في ضرب أبي رافع، وأن كل واحد منهم ادعى أن ضربته كانت هي القاضية على أبي رافع، فقال رسول الله ﷺ: «عجلوا بأسيافكم» فأتوا بأسيافهم فنظر إليها، ثم قال: «هذا قتله»، وهو سيف عبد الله بن أنيس، هذا أثر الطعام في سيف عبد الله بن أنيس [٣]، وقد يتوهم القارىء الكريم أن هناك تناقضاً بين رواية البخاري ورواية كتب السيرة الأخرى التي تقول إن الضربة القاضية كانت من عبد الله بن أنيس، والحق أنه ليس كذلك، ذلك لأن عبد الله بن عتيك يخبر عن نفسه وأنه غلب على ظنه أنه هو القاتل، وأنه قد حكى عن دوره في ضرب اليهودي أبي رافع، ولا يعني هذا أن غيره لم يشارك في قتله، إذ لم ينف هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع، والروايات يفسر بعضها بعضاً ويشرح بعضها بعضاً، والروايات تذكر أن كل واحد من أفراد السرية كان يدّعي أن ضربته هي القاضية والمميتة لأربي رافع، وقد نظر رسول الله ﷺ في دعواهم وفحص سيوفهم، وحكم بعد ذلك بأن الضربة القاضية كانت بسيف عبد الله بن أنيس رضي الله عنه، لظهور أثر الطعام عليه، أي أن هذا السيف قد دخل جوف أبي رافع ومزق أحشاءه وقطع أمعاءه وخلط غذاءه في جوفه [٤].

وقد ذكرت كتب السيرة أسماء سرية عبد الله بن عتيك وهم: مسعود بن سنان، عبد الله بن أنيس، أبو قتادة الحارث بن ربعي، خزاعي بن أسود [٥].

وفي هذه السرية دروس وعِبَر كثيرة منها:

١ - إن كل أعضاء هذه السرية كانوا من الخزرج فقد حرصوا على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف فقد كانوا كفرسي رهان في المسابقة في الخيرات، فهم لا يتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدنيا من المال والمناصب، وإنما يتسابقون إلى الفوز

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع (٥/ ٣٣) رقم (٤٠٣٩).
(٢) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ١٦٨).
(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٩١، ٩٢)، المغازي للواقدي (١/ ٢٩٤)، المغازي النبوية للزهري، (ص ١١٤).
(٤) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٨٩).
(٥) انظر: صلح الحديبية، باشميل (ص ٩١).

بمرضاة النبي ﷺ، التي مآلها رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية [١].

قال كعب بن مالك: وكان مما صنع الله تعالى به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج كانا يتصاولان [٢] مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين ـ يعني يتسابقان في خدمته ـ لا يصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله ﷺ غناء إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام، قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك [٣].

٢ ـ فائدة تعلّم لغة العدو: فقد استطاع عبد الله بن عتيك أن يصعد إلى حصن أبي رافع، وأن يخاطب امرأته وأن يدخل بيته مطمئناً، لأنه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت، ويؤخذ من ذلك استحباب تعلم لغة غير المسلمين لا سيما الأعداء منهم وخاصة لأولئك العسكريين الذين يذهبون لمهمات استطلاعية تجمع أخبار العدو وتزوّد القيادة بها، والقيادة ترسم [٤].

٣ ـ عناصر نجاح خطة ابن عتيك في قتل أبي رافع اليهود: ذهابه وحده، فقد قرر أن يذهب وحيداً إلى الحصن ويحاول أن يدخله ومن ثم يفتش عن طريقة يدخل بها أفراد سريته، تصرفه العادي الذي لم يلفت انتباه أحد من الحراس، قدرته على التمويه على الحارس، وإيهامه أنه يقضي حاجته وهذا منع الحارس من النظر إليه وتفحصه وتفرسه في وجهه. مراقبة حركة الحارس الدقيقة بعد دخول الحصن وإغلاقه، فقد كمن في مكان لم يشعر به الحارس وراقب الحارس حتى وضع مفتاح الحصن في مكان معين وتابعه حتى انصرف، وأخذ المفتاح وأصبح يستخدمه كيفما يشاء وفي أي وقت شاء [٥].

٤ ـ عناية الله ﷻ بأوليائه المؤمنين، فهذا الصحابي الجليل استمر بعون من الله تعالى يمشي ويبذل طاقته حتى أن أصيبت رجله، وكأنه لا يشكو من علة، حتى إذا انتهت مهمته تماماً وأصبح غير محتاج لبذل الجهد عاد إليه الألم، وحمله أصحابه، فلما حدث النبي ﷺ خبره قال له: «ابسط رجلك»، قال: فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط [٦].

٥ ـ فوائد من القصة استخرجها ابن حجر حيث قال: وفي هذا الحديث من الفوائد جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر، وقتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو بماله أو لسانه، وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلب غرتهم، والأخذ بالشدة في محاربة

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٦/ ١٧٧).
(٢) يتصاولان: يتفاخران، إذا فعل أحدهما شيئاً فعل الآخر مثله.
(٣) انظر: السيرة لابن هشام (٦/ ١٧٧).
(٤) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٩١).
(٥) المصدر نفسه، (١/ ١٩٢، ١٩٣).
(٦) البخاري، المغازي رقم (٤٠٣٩).

المشركين، وجواز إيهام القول للمصلحة، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين، والحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته واعتماده على صوت الناعي بموته والله أعلم [١].

٦ - وجود عبد الله بن أنيس جندياً في هذه السرية، وليس أميراً فيها له دلالته الكبرى في عملية التربية والتعليم، فهو العقبى البدري، المصلي للقبلتين فهو من السابقين الأولين من الأنصار، وليس عبد الله بن أنيس نكرة في مجال الجهاد والبطولات، فلا بدّ أن نذكر أنه السرية وحده الذي ابتعثه رسول الله إلى اغتيال سفيان بن خالد الهذلي في أطراف مكة، وهو الذي كان يعد العدة لغزو المدينة، وهو الذي نجح نجاحاً باهراً في مهمته تلك، وقتله في فراشه وداخل خيمته، وأعجز قومه هرباً، وعاد منتصراً مظفراً، فهو مليء بالمجد، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة، إنما كان أحد أفرادها، وهو يحمل هذا التاريخ المشرق في سجلاته عند ربه ﷻ قبل أن يكون عند الناس.

وهو درس تربوي خالد قد استوعبه أصحاب النبي ﷺ، وهذا النوع من التربية لا مثيل له في عالم الأرض، فالذي يحكم في الجيوش تسلسل الرتب، حتى أن الرتبة الواحدة يحكم فيها المتقدم بالمستجد، وعلى المستجد السمع والطاعة للمتقدم ولو بأشهر. وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدم على عبد الله بن أنيس أحد، ولكنها التربية النبوية العظيمة التي خطها النبي ﷺ في أكثر من موقع، لتجعل هذا الجيل يتعلم من سابقه ويتدرب على يديه، فطالما أرسل عليه الصلاة والسلام سرايا فيها أبو بكر وعمر جنديين عاديين، في غمار الجنود [٢].

ثانياً: سرية عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رِزَام اليهودي:

بلغ رسول الله ﷺ أن اليسير بن رزام أمير اليهود بخيبر بعد سلام بن أبي الحقيق، أخذ في جمع يهود الشمال وتحريضهم على رسول الله ﷺ، ولم يكتف بذلك، بل بدأ بتأليب قبائل غطفان وجمعها لقتال رسول الله ﷺ، وحين علم رسول الله ﷺ ما يبيته اليهود له من الخديعة والمكر، رأى ﷺ أن يتأكد من ذلك قبل أن يقدم على أمر ما، فأرسل عبد الله بن رواحة في نفر من المسلمين رواداً يكتشفون ما تخبئه يهود ومن لف لفها من مشركي العرب [٣].

وقد تأكت المخابرات النبوية من أمر اليُسير بن رِزَام، وكان هذا كافياً لقيام النبي ﷺ ببعث سرية في ثلاثين راكباً عليهم عبد الله بن رواحة، وفيهم عبد الله بن أنيس، فأتوه فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله ﷺ ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجل منهم رديف من المسلمين، وكان هو رديف عبد الله بن أنيس على بعيره، حتى إذا كانوا

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٤٥).

(٢) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٤٨).

(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٨٨، ٣٨٩).

بقرقرة ثيار على ستة أميال من خيبر، ندم اليسير على مسيره إلى رسول الله ﷺ فأهوى بيده على سيف رديفه ابن أنيس، ففطن له، فاقتحم به، ثم ضربه بالسيف، فقطع رجله وضربه اليسير بمِخْرَش [١] في يده من شواحط [٢]، فضرب به وجه عبد الله فأمه [٣]، ومال كل رجل من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله، إلا رجلاً واحداً أفلت على رجليه، فلما قدم ابن أنيس على رسول الله ﷺ تفل على شجنه، فلم تقح ولم تؤذه [٤].

وكانت هذه السرية في شوال سنة ست من الهجرة [٥].

وفي هذه السرية دروس وعِبَر منها:

١ - كانت الخطة النبوية هي محاولة إيقاف نهر الدم بين اليهود والمسلمين ابتداءً، فقد كان دور عبد الله بن رواحة في هذا الاتجاه، غير أن الحقد اليهودي الذي أشرب قلوبهم والسم الذي ينفثونه على المسلمين، هو الذي غلب آخر الأمر، وأفسد الخطة كلها، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين فوقعت الدائرة عليهم.

٢ - إن البأس في الحرب ما لم يكن غليظاً وشديداً، فلن يحسم المواجهة مع العدو، وسيجعل الحرب تفني كل شيء وتأكل كل شيء، فلا بدّ من بث الرهبة والرعب في قلب العدو، ولا بدّ من الشدّة معه حين لا يجدي الحوار أو المناقشة، ولا بدّ من الغلظة التي تشعر العدو أن من يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم.

٣ - شهد العام السادس من الهجرة تصعيداً عنيفاً في عمليات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمر شهر دون سرية أو سريتين تضرب في الصحراء، وتفض جمعاً أو تحطم عدواً أو تغتال طاغوتاً، فقد كان شعار المرحلة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، فقد كان حزب الله ينطلق في الآفاق باسم الله، يحمل المبادىء الخالدة، والقيم العليا يقدمها للخلق كافة، ويزيح كل طاغوت يحول دون وصول هذه المبادىء، ونشهد حزب الله في أفراده جميعاً، والذين تلقوا أعلى مستويات التربية الخلقية، والفكرية، والعسكرية، والسياسية، كيف ينفذون هذا المنهج، وكيف يكون واقعهم ترجمة عملية وحية لمبادئهم، وكيف يتقدمون ليتصدروا مرحلة جديدة تبدأ معالمها وملامحها مع صلح الحديبية [٦].

---

(١) المخرش: شبه المقرعة، يضرب به، وهي معوجة الرأس.
(٢) الشواحط: شجر ابن النبع، من أشجار الجبال التي يتخذ منها الفنسي.
(٣) فأمه: أي جرحه في رأسه، والشجة المأمومة هي التي تبلغ أم الرأس.
(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٧٧).
(٥) المصدر نفسه، (ص ٤٧٧).
(٦) انظر: التربية القيادية (٤/ ١٨٩ ـ ١٩٢).